

تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات

د . فوج عبد القادر طه

قسم علم النفس

كلية الآداب - جامعة عين شمس

نحاول فى هذا البحث أن نعرض بعضا من أهم الظواهر أو السمات أو الصفات التى بدأت تشيع فى الشخصية المصرية فى الآونة الأخيرة ، والتى تعتبر صفات مذمومة ومداة وهدامة ، تضر بالمجتمع المصرى ، وتعرقل انطلاقته نحو النمو والازدهار والتقدم .

وهكذا ، فإننا نشير إلى ضعف التوجه العلمى ، ووجهة الضبط الخارجى (ونظرية التآمر) ، والبيروقراطية (وتبديد الطاقة دون إنتاج) ، والانتهازية ، واللامسؤولية (أو عدم تقدير المسؤولية) ، وتبلد العواطف الاسرية وعنف العدوان داخلها ، واقتتاد القدوة . كما أننا نطرح هنا مصطلحا لأول مرة هو : تليف الضمير^١ ، قياسا على ما هو معروف من كثرة انتشار تليف الكبد بين المصريين ، إذا ما قورن بانتشاره فى بلاد أخرى . ونقصد به ما أصاب الضمير لدى كثير من المصريين - فى وقتنا الحالى - من فساد وتحلل ؛ بحيث يمكن تشبيهه فى هذه الحالة بالليفة الملوثة بالثقوب التى تقرر السوائل والأشياء ولا تمنعها ولا توقفها عند حدها . فهذا الضمير المتليف لم يعد صالحا لمنع صاحبه من ارتكاب المفاسد والجرائم والميوقات التى تضر بالبلد ومواطنيه . ونوصى فى نهاية البحث بضرورة دراسة مثل هذه السلبيات بمنهج تكاملى تشترك فيه تخصصات علمية مختلفة تتكامل معا لإعطاء صورة شاملة عن عوامل ومسببات هذه السلبيات ، وتقترح أنجع السبل لعلاجها .

Distortions Suddenly Increased in the Egyptian Personality (A Psycho-Social View).

Conscience Cirrhosis (١)

قهييد فى المدخل :

تذكرنا حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، وما كتبه عنها العرب والأجانب من مؤلفات ودراسات ، وتقارير وأراء ، بانتصارنا العظيم فى هذه الحرب التى أعادت إلينا كرامتنا ، واستردت لنا ثقتنا فى أنفسنا بعد انهيارها فى يونيو عام ١٩٦٧ . فقد عبر الجندى المصرى قناة السويس ، وكانت تعتبر من أقوى الموانع المائية ، واقتحم خط بارليف ، وكان يعتبر من أقوى الحصون العسكرية .

وما من شك فى أن هذا الانتصار يؤكد لنا - بشكل عملى وواقعى - إمكانية أن يتخطى المصرى عجزه بسرعة ، وقدرة الشخصية المصرية على أن تنفض عنها سلبياتها وعيوبها محولة إياها إلى إيجابيات تدعو للفخر والاعتزاز . فقد تم ذلك فى وقت قصير ، لم يتجاوز السنوات الست إلا بالقليل ، مما يدفعنا إلى أمل يملأ نفوسنا جميعا بإمكانيات الشخصية المصرية الهائلة على أن تتجاوز سلبياتها بأسرع مما نتصور لتحقيق لنا الأمل المنشود فى تخطى أزمتنا الاجتماعية والاقتصادية ، ومشكلاتنا التربوية والتنموية ، بل وعلى تجسيد حلمنا فى استعادة مكانتنا الحضارية والثقافية التى سبقتها بها العالم كله ، وانفردنا بذلك عشرات القرون ، فكان المثل السائر "مصر أم الدنيا" أوضح تعبير عن هذه الحقيقة ، وأصدق إقرار بها .

ولكى ننجح فى ذلك ، علينا أولا أن نتعرف على الشخصية المصرية ، وما طرأ عليها من تغيرات ، حتى ندعم الإيجابى منها والمفيد ، ونعالج السلبى منها والضرر . ذلك أن معرفة حقيقة الشئ (أو الظاهرة بلغة العلم) أولى خطوات التحكم فيه واستغلاله لصالحك . ومن هنا كان قول الحكماء منذ القديم " اعرف نفسك " ، ثم أضيفت إلى ذلك حكمة أخرى تقول : " إذا عرفت استطعت " . بما يعنى أنك إذا عرفت حقيقة الشئ أمكنتك أن تشكله وفق ماتريد ، علاوة على أن هذه المعرفة تعطيك الفرصة لجلب أكبر قدر ممكن من خبراته ، ودرء أكبر قدر ممكن من شروبه وأضراره . ولهذا ، يعترف الأطباء ، والمعالجون البدنيون ، والنفسيون بأن التشخيص الصحيح نصف الطريق إلى العلاج ، بمعنى أن معرفة الداء خطوة لابد منها لوصف الدواء .

ولاشك أن الشخصية المصرية المعاصرة بها من الجوانب والخصائص الإيجابية المفيدة الكثير ، والكثير . لكن المصارحة تقتضى أن نذكر أيضا أن بعض السلبيات الضارة بدأت تظهر أخيراً على سطحها . مما أزعج كثيراً من المهومين بتقدم مصر وانطلاقها نحو التنمية والازدهار ؛ حيث تقف هذه الجوانب السلبية كعقبة كزود ، أمام ما يبذل من جهود ، فتقلل من عائدها التنموى ، وتذهب بالكثير من خيرها المرجو . ولذا ، أرى من الأمانة

ولنضرب مثلاً آخر على ضعف التوجه العلمى حتى بين كثير من علمائنا الكبار ، ذلك مارواه لنا الدكتور / مصطفى فهمى ، الأستاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية فى مقال له بأهرام ١٩/١١/١٩٩٣ ، بعنوان «الهندسة الوراثية .. عندهم .. وعندنا» ، فمن بين مايقول فيه " قرأت إعلانات عن محاضرة سيلقيها أحد كبار العلماء عن الهندسة الوراثية فى واحدة من أكبر مؤسساتنا العلمية ، وهولت - فى الوقت المحدد - إلى قاعة المحاضرات الفخيمة . وكانت أولى المفاجآت أن عدد الحاضرين لايتجاوز بضعة عشر فردا ، على أنهم جميعا كانوا من كبار الأساتذة فى الطب ، والكيمياء ، والفيزياء ، بل والكمبيوتر . وانطلق المحاضر يفيض بعلمه موضحا - بأسلوب شيق - أحدث الأبحاث فى هذا الاتجاه العلمى الجديد الذى تعنى به كل الدول المتقدمة . ثم قال إنه يجرى الآن مشروع دولى لرسم خريطة لكل الطاقم الوراثى فى الإنسان من جينات وكروموسومات ، وقد رصد لهذا المشروع بلايين ، وليس ملايين الدولارات ... ووقف أستاذ كبير ليسأل : وما فائدة مثل هذا المشروع الذى تنفق فيه البلايين؟ هل سيساعدنا على تنشئة أولادنا نشأة قومية ؟ . ورغم أن السؤال بعيد بعض الشئ عن أن يكون نقاشا علميا للمحاضرة ،

والأهمية، بل والأولية ، أن أركز حديثى ، فى هذا المقال ، على هذه الجوانب السلبية التى أرى أنها بدأت تطفو على سطح الشخصية المصرية ، وهى فى أمس الحاجة منا إلى البحث والدراسة والعلاج :

١ - ضعف التوجه العلمى ٢ :

مع زيادة نسبة التعليم فى مصر ، كنا نتوقع أن يزداد التوجه العلمى بحيث يعم معظم مناشط حياتنا ، إلا أننا نلاحظ مع الأسف غير ذلك . فكثيرا ما نجد معلمى الأطفال والتلاميذ يشيرون فى دروسهم وبين تلاميذهم أفكارا معنة فى الغيبة والخرافية ، ومحاربة للاتجاهات العلمية البناءة . فهذه معلمة تنصح تلاميذها بأن يقرأوا شيئا من القرآن فى الحجرة التى ينامون فيها حتى لا تأتى إليهم الشياطين فى المساء توسوس لهم بسوء الأفعال ، وتصيبهم بهالغ الأضرار . ومعلم آخر يوزع شرائط على تلاميذه تدعو للفتنة الطائفية . وإمام مسجد مشهور يصب بأعلى صوته اللعنات على المخالفين لدينه ، ناسيا أن الدين لله وأن الوطن للجميع ، وأن الدين والمصلحة معا يحضنان على الوحدة بين المواطنين لا الفرقة ، وعلى التماسك لا التناهد؛ فالاتحاد قوة ، والفرقة اندحار ودمار .

قد يكون بفعل نوع من البرمجة الوراثية ؟ .
لم أستطع مواصلة الاستماع ، وخرجت مذهولا
من هذا الخلط الشديد فى رؤوس المتعلمين بل
والعلماء ، فما الهال بالجهلاء ... ؟ .

وعلى عكس ما كنا نتوقع من زيادة
التوجه العلمى فى مؤسسات الدولة ومصالحها
نجد تدهورا وانتكاسة فى تبنى الاتجاهات
العلمية وتدعيم الأخذ بها فى كثير من أنشطة
الدولة ومؤسساتها ؛ فنسبة الميزانيات التى
كانت مخصصة للبحث العلمى ، ولتدعيم
المعامل العلمية ، قد تقلصت ، وتقلصت أيضا
بعثات الدولة إلى الخارج للحصول على درجات
الدكتوراه ، والتى كانت تعود حاملة معها آخر
ما وصل إليه العلم فى الخارج ، وكذلك الأمر
بالنسبة للعلماء المصريين الذين كانوا يشاركون
فى المؤتمرات العلمية بالخارج ؛ حيث قلت
النسبة التى كانت تتحملها الدولة إسهاما فى
تكلفة السفر والإقامة . كما أن الأنشطة التى
كانت تمارسها بعض مؤسسات الدولة - بشكل
علمى - قد حوريت ، وألقى بعضها ، أو
تقلص ، كديوان الموظفين ، الذى كان نشطا
من أوائل الخمسينيات وبدايات الستينيات فى
التعيين للموظائف الحكومية عن طريق الاختيار
المهنى والتصنيف المهنى على أسس علمية .
وكذلك الأمر بالنسبة لاختيار وتصنيف
التلاميذ الصناعيين بوزارة الصناعة على
أسس علمية رفيعة المستوى حتى وقت

إلا أن الأستاذ المحاضر أجاب بلباقة أن
الأبحاث العلمية قد لا يبدو لها فى أول الأمر
تطبيقات مباشرة ، ولكن عندما ترسخ
النظريات ، وثبتت صحتها ، لاتلث أن تظهر
التطبيقات متسارعة ... وهب أحد الأساتذة
المستمعين منتفضا ، وقال : عندك ، تقصد
التدخل فى الأجنة ، قد رأيت فى التلفاز ،
داعية كبيراً يقرر أن هذا التدخل فى المصائر
يعد حراما ، وكذلك اللعب بالأجنة فيما يسمى
بأطفال الأنابيب ومحاولة تغيير الصفات
الوراثية ، إن هندستك الوراثية هذه حرام فى
حرام . تماسك المحاضر وأجاب هادئا أن أى علم
لا يوصف بأنه حلال أو حرام ، لأن العلم بالمعنى
الحديث هو بحث عن الحقائق بمنهج علمى
معروف . أما ما يصح الاختلاف فى تقييمه ،
فهو بعض تطبيقات العلم ، ولا يصح أن نمنع
أو نحرم أحد العلوم لوجود بعض تطبيقات
خاطئة له ، وإذا كان هناك كيميائى يصنع
المخدرات فى معمله ليروجها بين المدمنين فإن
هذا لا يعنى تحريم ممارسة علم الكيمياء ، وإنما
يقبض على الكيميائى المنحرف ، وكل علم له
تطبيقاته المفيدة والضارة . والهندسة الوراثية
لها فوائدها التى بدأت تظهر فى الطب ،
والزراعة ، وتربية الحيوان ، وغير ذلك ...
ويستمر الدكتور مصطفى فهمى فى وصف
مادار فى المحاضرة إلى أن يقول " وإذا يدرس
جامعى شاب يسأل : ألا ترى أن سيدنا
عيسى ، إذ تكلم فى المهد صبيبا ، فإن ذلك

يقابله أو يحيط به من ظروف وملابسات لا ذنب له فيها ، ولا إسهام لشخصه في إيجادها. وهناك درجات بين هذين النموذجين" (٤: ٨٤). ونصف وجهة الضبط لدى الفرد بأنها خارجية في حالة اقتناعه بعدم مسؤوليته الشخصية عما يقع له من أحداث ، أو يتم به من سلوك ؛ حيث يرجعهما إلى ظروف وملابسات وعوامل خارجة عنه . ولا شك أن ما ينطبق من هذا الوصف على الفرد ينطبق أيضا على الجماعة أو المجتمع .

ويلاحظ أن الفرد (أو المجتمع) تزيد لديه وجهة الضبط الخارجى بمقدار ضعف وجهة الضبط الداخلى (بمعنى مسؤوليته الذاتية عما يقع له أو منه) ، والعكس بالعكس . ولا شك أن وجهة الضبط الخارجى تزيد مع بعد الشخص أو المجموعة عن التوجه العلمى ؛ حيث ينفذ الفرد أو المجتمع مسؤوليته عما يقع له أو منه ، ويرى الآخرين والظروف الخارجية وكأنها تتأمر عليه ، ولا قبل له بها . وينتج عن ذلك يأسه عن النضال ، وقعوده عن السعى لتحقيق الهدف ، طالما كان مقتنعا أن تحقيق الهدف ليس راجعا إليه ، وإنما إلى ظروف خارجة عنه . ومن هنا ، يتبنى الفرد أو المجتمع نظرية التآمر التى تشير إلى أن خيبة الرجاء فى مسعاه إنما ترجع إلى ظروف خارجية، أو قوى خارجية تتأمر ضده . ولعلنا

قريب .. حيث بدأ هذا الاتجاه يحارب ويتراجع الأخذ به مع أوائل التسعينيات ، بينما كان فى قمته منذ نشأة وزارة الصناعة فى الخمسينيات وحتى نهاية الثمانينيات .. وهكذا ، نعمل دون وعى منا على تهيئة تربة تنمى التطرف والإرهاب وتعمل على تدعيمه.

ويشير هذا إلى أن مجتمعنا يمر - هذه الأيام - بموجة من التراجع عن تبنى الاتجاهات العلمية البناءة لصالح الاتجاهات الغيبية والتخريفية المدمرة ، مما يؤكد أننا لازلنا فى حاجة ماسة إلى جهود مكثفة ومخططة لإشاعة التنوير العقلى بين فئات مجتمعنا المختلفة : أطفاله وراشديه ، متعلميه وأممييه.

٢ - وجهة الضبط الخارجى (ونظرية التآمر) ٣ :

" وجهة الضبط " مصطلح سيكولوجى "يشير إلى وجهة نظر الفرد فى العوامل المؤثرة على سلوكه ، أو على مستقبله ، أو المسئولة عنهما ، وما إذا كان الفرد يرجع هذه العوامل إلى شخصه هو (وبالتالى فهو مسئول عنها) ، أم إلى الظروف الخارجية (وبالتالى يكون هذا قدره الذى لا مفر منه ، ولا مسئولية شخصية عليه) . فهناك من يعزو فشله إلى قصور فى قدراته واستعداداته وسماته الشخصية ، فى مقابل من يعزو فشله إلى سوء حظه فيما

استشراتها ، ويعرى سمواتها . ولعل أدينا - فى هذا - كان يلقى ناقوس الخطر منذ أوائل السبعينيات ، لينبها إلى سرعة است شراء البيروقراطية فى أجهزة الدولة ومؤسساتها ، وما سوف تحدثه من أثر تدميرى فى بنية المجتمع ؛ حيث تبدد طاقة أفراد وميزانية مؤسساته دون عائد إنتاجى مفيد . أما محور القصة ، فهو : " أمر الوالى بوضع زير على النهر ليشرب منه الناس ، ولكنه عندما عاد إليه بعد سنة وجده قد تحول إلى (وزارة) ، ولم يجد الزير " ؛ بمعنى أنه وجد وزارة بنشأتها ومبانيها ، ومصالحها وموظفيها ، وموازناتها المالية .. دون أن يجد إنتاجا لهذه الوزارة ، أو قياما بواجبها المتمثل فى سقاية الناس ، وإشباع حاجتهم ، كما يرمز إلى ذلك " الزير " .

ومما يؤسف له ، أن تلك الصبغة التى أطلقها أدينا ، منذ أكثر من عشرين عاما ، لاتزال فى حاجة إلى إحيائها اليوم . فهذه جريدة الأهرام تنشر فى ١٩٩٣/٣/٢ ، تحت عنوان " نموذج للبيروقراطية من مرفق المياه " للدكتور عبد المعطى شعراوى ، الأستاذ بجامعة القاهرة ، مايرويه لنا عن خبرة شخصية تعرض لها عندما اضطر إلى تركيب عداد مياه خاص لشقته فى " العجوزة " ، فكان عليه أن يقوم بعشر خطوات لشراء

نتذكر كيف ادعت القيادة المصرية فى نكسة ١٩٦٧ أن الأمريكين هم الذين حاربونا بجنودهم وعتادهم على الجبهة العربية ، وهو أمر لا قبل للعرب به . وهكذا ، دافعت القيادة المصرية عن نكستها فى هذه الحرب ، وحاولت علاج الجرح النرجسى الذى أصابها بنفى القصور عنها وإسناد النكسة إلى قوى خارجية لا قدرة لقيادة عربية على دفعها .

هذه النعمة تبعد عن التحليل العلمى للأحداث ، مما يزيغ وعينا بالحقائق ، وبالتالي يحبط مسعانا لحل مشكلاتنا انتظارا لحلها من قوى خارجية ، وليس بفضل تخطيطنا وجهودنا ومسعانا الفعلى . ومن أسف ، أنها تشيع فى تبرير سلوكنا كأفراد بمثل شيوعها فى تبرير مشكلاتنا كمجتمع .

٣ - البيروقراطية (وتهديد الطاقة دون إنتاج) :

فى واحدة من أروع إبداعات الدكتور / حسين مؤنس القصصية بعنوان " إدارة عموم الزير " ، والتى نشرها بجريدة الأهرام فى ١٩٧٢/٢/٤ ، وأعاد نشرها عام ١٩٧٥ بدار المعارف فى سلسلة " أقرأ " ، ضمن مجموعة قصصية بعنوان " إدارة عموم الزير وقصص أخرى " ، نجد نصا أدبيا (من قصص المواقف) يجسم البيروقراطية ، ويصف سرعة

٤ - الانتهازية :

هذه صفة يقصد بها تحين الفرد لأية فرصة أو ظروف لكي يحقق لنفسه مصلحة أو منفعة دون اعتبار لأية مثل أو قيم أو أعراف؛ فالانتهازى لا يهتم إلا استغلال الظروف لصالحه، حتى لو أضرت بغيره أو بمجتمعه . ومن أسف ، أن هذه الصفة بدأت تطفو على سطح الشخصية المصرية ، حتى أنها تصدق الآن فى وصف كثير من المصريين ، فانتهاز المصرى لأية فرصة تسنح له للهجرة من وطنه إلى أى بلد آخر يحقق فيه نفعا أكبر كانت من الندرة فيما مضى ، عكس ما هو عليه الآن . وانتهاز المسئولين لتحقيق القدر الأكبر من المكاسب الشخصية عن طريق تحكمهم فى مصالح الناس ، أو مصالح الدولة ، أمر شائع اليوم عن أى وقت مضى . بل إن الأمر وصل ببعض الانتهازيين إلى اعتبار انتهازياتهم تلك حقا لا ينبغي لأحد أن يجادلهم فيه ، أو يسائلهم عنه .

فها هي - على سبيل المثال - جريدة الأهرام فى ١٩٨٨/٧/٢ ، تنشر خبرا يقول : " رفضت محكمة استئناف طنطا دعوى تعويض أقامها مدير مدرسة ... ضد مؤسسة صحفية ، يطالبها فيه بمبلغ ٥٠ ألف جنيه لنشرها صورا لطلبة مدرسته أثناء استخدامه

العداد وتركيبه ، بضع منها يقتضى التنقل بين أحياء مختلفة من القاهرة ، توجد بها أماكن تقديم الطلبات ، والحصول على التأشيرات ، وكتابة الخطابات اللازمة لذلك ؛ مثل الذهاب إلى إدارة مرفق مياه امبابية بالقرب من ميدان الكيت كات ... ثم الذهاب إلى المقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى فى ميدان رمسيس .. والذهاب إلى محطة مياه الأميرية فى منطقة الأميرية .. بل كان عليه التردد أكثر من مرة على بعض هذه الأمكنة .. وأنهى ماكتبه بسؤال بديهي " لماذا لا تشتري إدارة المرفق عدادات ، وتقوم بتحصيل أثمانها من المشتركين بدلا من تعذيبهم هذا العذاب الأليم ؟؟؟ " .

ومع أن مثل هذا النموذج لما نعايشه من البيروقراطية المصرية - فى وقتنا الحالى - غنى عن التعليق ، إلا أننى أ طرح هنا تساؤلا هاما : " هل هانت طاقة المصرى وجهده ووقته وأعصابه حتى تقارس الإدارات الحكومية عليه مثل هذا التعذيب دون مبرر منطقي ، أم هي هواية تعذيب الذات ، وقد وصلت هذا الحد من تسلط بعضنا على بعض بهذه الكيفية ، مما نخشى معه أن يتحول اللاببيروقراطيون إلى بيروقراطيين اقتصادا لأنفسهم مما يقع عليهم من البيروقراطيين باستخدام نفس سلاحهم ؛ وهكذا ، يتبادل المواطنون عدوانا مقصودا لتعطيل مصالحهم وتدمير أعصابهم .

حرب أكتوبر .. قال لى : إن المطاريد فى الصعيد (المجرمين ، الصادر ضدهم أحكام ، والمطلوبين للسجون) ، غا إلى علمهم أن هناك منشآت تحتاج إلى حراسة أثناء الحرب ، وحراستها تستنزف طاقة بشرية من رجال الشرطة ، ولا يمكن ضمان تأمينها . وجاء المطاريد ، سلموا أنفسهم ، وقالوا له : نحن سنحرس هذه المنشآت أثناء الحرب ، ولك علينا عهد أن نضمن تأمينها طوال فترة الحرب ، فإذا انتهت الحرب سنعود إلى الجبال ، وتعودون إلى مطاردتنا ، وقد التزم هؤلاء المطاريد بكلمتهم "

ولنا أن نقارن إحساس هؤلاء " المطاريد " بالمسئولية نحو بلدهم (ولاهم لها) بما فعله مدير المدرسة ، الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وغيره للأسف كثير من المسئولين ، والموظفين، والعاملين الذين ائتمنهم المجتمع على مسئوليات ألقاها على عواتقهم لتسيير أموره، وتحقيق تنميته وازدهاره ؛ فإذا بهم يصبحون عوامل تدمير وتخريب له وليسوا عوامل بناء له وتقوية . ويكفى - فى هذا الصدد أيضا - أن نقارن بين مدى جدية قيام مدرس اليوم ، والتزامه بواجباته التعليمية والتربوية ، بما كان عليه مدرس الأمس ، وأن نقارن بين مدى جدية قيام مسئولى الإنشاءات والتنظيم والنظافة بمسئولياتهم وواجباتهم بين

لهم فى بناء عمارة يملكها ... وقال إن مانشرته الصحيفة قد أضر بسمعته ... ورفضت محكمة أول درجة ، فاستأنف مدير المدرسة أمام محكمة استئناف طنطا ... وترى المحكمة ... أن المستأنف على قمة إحدى دور التعليم المسئولة عن شباب وأجيال المستقبل ، وأن جميع تصرفاته وأعماله يجب أن تكون مثالا يقتدى ... "

ولا يحتاج منا مثل هذا الخبر إلى تعليق، فهو مكثف الدلالة بذاته .

٥ - اللامسئولية (أو عدم تقدير المسئولية)^٦ :

هذه خاصية أخرى بدأت تستشرى بيننا؛ حيث يستهين الفرد بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، وينقص إحساسه بها ، ويضعف سعيه للوفاء بها على خير وجه يستطيعه . فالمصرى القديم ، الذى كلف ببناء الأهرامات وأبى الهول والمعابد الفرعونية ... ، والمصرى الحديث ، الذى كلف بعبور القناة ، واقتحام خط بارليف وتدميره فى أكتوبر من عام ١٩٧٣ ، كان مثالا لتحمل المسئولية . وفى هذا المعنى ، نشرت الأهرام للأستاذ أحمد بهجت ، يوم ١٩٩٣/١٠/٤ ، مقالا بعنوان " روح أكتوبر " ، فى بابه " صندوق الدنيا " جاء فيه : " ... حدثنى ضابط شرطة صديق عن

أيضا على الوطن ككل باعتباره الأسرة الأكبر. ويمكن هنا سر الولاء للوطن والتضحية من أجله حبا لجلب الخير له ، وإبعاد الضر عنه .

هذا ، وقد عرف عن الشخصية المصرية - منذ القدم - استمتاعها الشديد بالدفع العاطفي الذي يسود بين أعضائها ، والذي أدى بالمصريين ، وحتى وقت قريب جدا ، إلى تمسكهم بوطنهم ؛ حيث الأسرة الصغيرة والكبيرة ، ورفض الهجرة منه . ولكن ، من الملاحظ أن الأمر قد اختلف مؤخرا وبشكل واضح . فكثيرا ما تلتقى بشخص تسأله عن أخيه فيرد عليك بأنه لم يره منذ سنوات ، رغم أنهما قد يسكنان نفس المدينة . وأصبح كثير من الأبناء يرسلون آبائهم إلى دور المسنين بنفس المدينة التي قد يقيمون بها - تخلصا منهم - ودون ضرورة ملجئة ، بل ودون زيارتهم إلا نادرا ...

بل وصل الأمر إلى حد القتل ، يرتكبه عضو الأسرة مع أقرب المقربين إليه من أب أو أم أو جد أو جدة أو أخ أو أخت أو زوج أو زوجة ... مما يدل على تبلد أصاب العواطف الأسرية ، وعلى نمو للعُدوان المتبادل بين أعضائها ، والذي يصل إلى حد التدمير ، على نحو ما طالعنا به جريدة الأهرام ، في ١٩٨٨/٧/٣ ، في صفحتها الأولى ؛ حيث

اليوم والأمس ، لنرى مدى سرعة وخطورة تفشى اللامسئولية مما يصيب المجتمع بالأضرار ، ويهدد تنفيذ خططه التنموية الطموحة بالبطء والهزال .

٦ - تبلد العواطف الأسرية وعنف العُدوان داخلها ٧ :

يرى علماء التحليل النفسي أن هناك دافعين نفسيين أساسيين يحكمان سلوك البشر وانفعالاتهم ، وأن بقية الدوافع الأخرى يمكن أن تندرج تحت أيهما . هذان الدافعان هما دافع الحب ، ودافع العُدوان ؛ فالحب يحتوى كل الصفات ، والدوافع ، والرغبات الإيجابية البناءة اللازمة لنمو الفرد وتقويته وتحقيق صالحه ، واللازمة أيضا لازدهار المجتمع وتحقيق تقدمه . أما العُدوان ، فعلى النقيض تماما من ذلك ، حيث يحتوى كل الصفات ، والدوافع ، والرغبات السلبية الهدامة ، التي تضر بالفرد ، وتضر بالمجتمع . ولما كانت الأسرة - بطبيعتها - تسعى لصالح أعضائها ، فإن دافع الحب يسود علاقاتها مما يبدو في دفع العواطف المتبادلة بينهم ، والاستمتاع والتلذذ من التواجد معا ، والإصابة بالوحشة والضيق عندما تحتم الظروف أن يتعد بعضهم عن بعض . وما يصدق على أعضاء الأسرة الصغيرة يصدق

لنا ، نقتدى به فيما نفعل ، أو نسلك ، أو نفكر . وبالتالي ، كلما كان هذا المثل الذى نقتدى به يجسم صفات المواطن الصالح الساعى بكل جهده إلى رفعة وطنه وبنائه ، وإشاعة الخير والعدل بين أبنائه ، كلما كان ذلك قمة مانبغيه لصالح وطننا ومجتمعنا ؛ حيث ينشأ أفرادهم مقلدين لنماذج طيبة صالحة .

أما التوحد ، وهو العامل الثانى الذى ذكرنا أهميته ، فنقصد به تلك العملية التى "تلجأ إليها الشخصية ، بشكل لاشعورى ، (ودون وعى منها) ، فتمثل .. وتستدمج اتجاهات ودوافع وسمات شخص آخر . بحيث تصبح اتجاهات ودوافع وسمات أصيلة لها تضرب جذورها فى أعماق بنائها الأساسى . وهكذا ، فإن التغير الذى يحدث فى الشخصية ، نتيجة عملية التوحد ، لا يكون مقصودا كالذى يحدث فى عملية المحاكاة ، بل يكون غير مقصود ، وعميقا فى تأثيره ، ومستمرا إلى حد بعيد " (٥ : ٩٦) . ومن هنا نجد أن الابن يتوحد بأبيه ، والبنات بأمهاتهن ، والتلميذ باستاذة ، والمرؤوس بربيسه ، والصغير بالكبير ... والمجتمع بالبارزين من أبنائه وأبطاله وقواده .

نشرت خبرا يقول : " معركة عائلية بالسواطير تنتهى بمصرع الأب والابن والابنة : لقي ثلاثة أفراد من أسرة واحدة مصرعهم فى مشاجرة بالسواطير ... بسبب خلاف جوار مع ابنه على المصروف وتدخل الابنة الصغرى لفض الخلاف ... فأسفرت المشاجرة عن مصرع الثلاثة " . وكثيرا ، ماتطلعنا صفحات الجرائد اليومية بأخبار تشير إلى نفس الدلالة ، مما يفرغنا ويفجعنا !!

ولعل ماتعرض له مصر - فى أيامنا الحالية - من حوادث إرهاب ، تودى بحياة الكثيرين من الأبرياء ، أو تضرر بمصالحهم ، مظهر واضح لتبلد عواطف مرتكبيها ، وعنف مايوجهونه من عدوان وتدمير لأسرتهم الكبيرة (مصر) .

٧ - افتقاد القدوة :

هناك عاملان نفسيان شديدا التأثير على نمو شخصية الفرد ، بل وشخصية الجماعة فى نفس الوقت ؛ هما عامل التقليد^٩ ، وعامل التوحد^{١٠} . ونعنى بالتقليد (أو المحاكاة) ، أن يقوم الفرد ، أو تقوم الجماعة ، مع وعيها وقصدها ، بتقليد شخص ، ومحاكاته فى طريقة سلوكه وعاداته وتفكيره ؛ بمعنى أن يصبح الشخص - الذى نقوم بتقليده - قدوة

Imitation (٩)

Lack of Good Examples (٨)

Identification (١٠)

فإن الضمير يعتبر عنصراً رئيسياً من عناصر
الأنا الأعلى ، أو مكوناً أساسياً من مكوناته .
والضمير " كنسق يمثل المبادئ الخلقية ، ويدعو
لانتضباط السلوك وفق معاييرها ، وعدم
الخروج على القواعد والأعراف والقيم
الأخلاقية التي تواضع المجتمع عليها ، مُمثلاً
فى الوالدين ، أو من يقوم مقامهما . والضمير
يشيب الشخصية بالراحة النفسية إن تصرف
وفق القواعد الأخلاقية ، ويعاقبها بوحز
الضمير وتأنيبه إن خرقت تلك القواعد
وتجاهلتها . وفى بعض الأحيان ، يبلغ تأنيب
الضمير حداً تستحيل معه متعة الحياة ،
ويفضل عليها الموت ؛ فيلجأ الفرد إلى
الانتحار ، أو يحاوله تخلصاً من آلام تأنيب
الضمير ، وإنزالاً لعقاب قاس على نفسه ،
يكفر به عما ارتكبه من آثام . والضمير يمارس
نشاطه داخل الشخصية على المستويين :
الشعورى واللاشعورى " (٤ : ٤٤٥) .
ويعطى لنا فرويد مثلاً لوظيفة الضمير ؛ حيث
يقول فى المحاضرة الواحدة والثلاثين عن
تشریح الشخصية النفسية : " فأنا أشعر
بإغراء يدفعنى إلى فعل شئ أستشف من
ورائه اللذة ، لكنى أمسك نفسى عن فعله لأن
(ضميرى لايسمح به) . أو آذن لنفسى فى
الإتيان بفعل يتنافى مع مايقوله ضميرى ،

إن من تحاكيمهم ، أو من تتوحد بهم هم
- إذن - قدوتنا فى السلوك والاتجاهات
والأفكار والقيم .. ومن هنا ، كان من الأهمية
بمكان أن تتوافر وتكثر وتشيع بين المجتمع
تلك الشخصيات الجادة القويمة البناءة ، التى
تتحلى - فى سلوكها وقيمها - بكل ما هو
طيب وصالح ، وأن تختفى تلك الشخصيات
الفاسدة المفسدة ، وأن يحاربها المجتمع حتى
تصبح عبرة لمن يفكر فى محاكاتها ، أو
التوحد بها .

ومن أسف ، أن نلاحظ ، فى هذه الأيام ،
كثرة الفاسدين المفسدين ، وبعضهم يطفون
على سطح المجتمع ، ويمثلون نجومه فى الثروة
والمراكز والجاه ، مما يخطف أبصار المقلدين
والباحثين عن التوحد ، فإذا بهم يقلدون
الفساد ، ويتوحدون بمن يشيعون السوء
والدمار ، ويعيشون فساداً فى المجتمع ،
لاتحدهم قيم أو أخلاقيات .

٨ - تليف الضمير^{١١} :

يعتبر الضمير مكوناً أساسياً من
مكونات الشخصية الإنسانية ، أو عنصراً من
عناصرها الهامة ؛ فإذا كان علم النفس يقسم
الشخصية إلى ثلاثة مكونات رئيسية ، هى :
"الهوى^{١٢} ، والأنا^{١٣} ، والأنا الأعلى^{١٤} (٨) ،

Id (١٢)

Super Ego (١٤)

Conscience Cirrhosis (١١)

Ego (١٣)

فبينما لا يزال كثير من المواطنين المصريين يعانون من النهب والنصب المنظم الذى عرفناه أخيراً فى مأساة شركات توظيف الأموال ، تطالعنا جريدة الأهرام ، فى صفحتها الأولى ، فى يوم ١٧/١١/١٩٩٣ ، بخبر يقول : "إحالة رئيس مدينة (....) الأسبق للجنايات : ثروته ٦٠ (ستون) مليون جنيه ، ومرتبته ١٩٥ جنيه " . وبطبيعة الحال ، فإن مثل هذه الثروة لم تتضخم ، إلى هذا الحد ، بين يوم وليلة ، ولكنها بدأت تتزايد من سنين طويلة ، تحت بصر وسمع كثير من المسئولين ، بل وربما بمباركتهم وتشجيعهم . وها هى الأهرام أيضاً تطالعنا فى صدر صفحة " حوادث .. قضايا " يوم ١٣/١/١٩٩٤ (أى بعد حوالى شهرين من نشرها للخبر السابق) ، بخبر يقول " الرقابة الإدارية تشترك مع النيابة فى التحفظ على ممتلكات ملياردير مدينة (....) ، وقد تم - حتى مساء أمس - التحفظ على مقرين ... فى شارع عباس العقاد بمدينة نصر ، ومستشفى ... بنفس الشارع ، و١٢٠ عقارا يمتلكها الملياردير فى مدينة نصر والزيتون والمنصورة والإسكندرية ، وعزبة تزيد مساحتها على ١٠٠ فدان بمدينة الإسماعيلية ، ومقر إقامته فى كل من مدينة نصر والزيتون . كما تم التحفظ على ٤٠ (أربعين) قطعة أرض فضاء فى مدينة نصر والإسماعيلية والمنصورة والمطرية والزيتون ... " . وبطبيعة الحال ، فلاشك فى أن هناك مسئولين كباراً

طمعا فى ضخامة اللذة المنتظرة ، فإذا ما فعلته فلن أسلم من تبيكيت الضمير ووخزه الأليم إذ يجعلنى نادما أسفا على ما فعلت ... " (٦ : ٥٦-٥٧) .

أما تليف الضمير ، فإننى أطرحه هنا كمصطلح ، يقابل المرض (أو العرض) ، الذى يصيب الكبد ، ويطلق عليه الأطباء تليف الكبد . فهذا التليف الكبدى يدمر خلايا الكبد ويعطبها ، بحيث تضمر وتحلل وتفقد قدرتها على أداء وظائفها الحيوية . وبالمثل ، فإننى أرى أن ضمير الإنسان ، عندما يفسد ، فإنه يتحلل ويصبح كالليفة الملوثة بالشقوب ، يمر منها كل سلوك تهوى نفس الفرد الحبيشة أن تأتبه وأن " تقرره " ، فيتم ذلك دون رقيب من شخصية الفرد يقاومه ويمنعه ، ويرشده إلى ما ينبغى من مكارم وفضائل ، وما لا ينبغى من مفاسد وذنابل .

إن وقفة متأملة فيما نعايشه من أحداث يومية ، وفيما نقرأه فى الصحف والمجلات ، وفيما يرويه لنا الأهل والمعارف ، تؤدى بنا إلى الخروج بانطباع لاتكاد نجد منه مفرا ، هو أن الشخصية المصرية - فى قطاع كبير منها - قد أصيبت بتليف الضمير ، ولا بد من أن ندق ناقوس الخطر لكافة المسئولين عن التربية فى بلادنا ، وعلى حماية القيم الحيرة البناءة فى مجتمعنا ، لتهب باحثة عن الأسباب ، باذلة جهدها للعلاج قبل استفحال الداء .

ولعل مأساة تليف الضمير تصل حدا مخيفا عندما يتبادل وزير أسبق مع وزير سابق الاتهامات بالفساد ، والكسب غير المشروع ، وخيانة أمانة المسئولية ، على هذا المستوى الوظيفي الرفيع ، على نحو ما قرأنا فى مجلة روز اليوسف ، وغيرها من الصحف والمجلات الصادرة فى شهرى يناير وفبراير من عام ١٩٩٤ (وأنا لازلت أكتب هذه السطور) .

وهكذا ، يبدو لنا أن كثيرا من المصريين، الذين يفترض أن يكونوا قدوة لغيرهم قد فسدت قيمهم ، ولم يعودوا يفرقون بين الكسب الحلال ، وبين النهب الحرام . ولم يعد يهمهم التزام السلوك القويم ، الذى تدعو إليه الشرائع والأعراف والأخلاق والمثل العليا ، والذى يؤدى إلى تقدم المجتمع وازدهاره ، إذا كان هذا لايساعدهم على الكسب السريع والشراء الفاحش ، ويستبدلون به سلوكا منحرفا معوجا غير مشروع ، تكون نتيجته إلحاق الضرر البالغ بالمجتمع وإعطابه ، مما زاد من نسبة الإصابة بتليف الضمير . وليس من شك أن أغلب السمات السلبية السابق ذكرها (الانتهازية - اللامسئولية - البيروقراطية - تبلد العواطف الأسرية - افتقاد القدوة) يمكن اعتبارها - بشكل أو بآخر - مظاهر لتليف الضمير .

لعل ماسبق من سمات سلبية ثمان ، ناقشناها فى هذا المقال ، يوافقنى كثيرون

يسهلون للملياردير كل مخالفاته ويتسترون عليها ، بل ويحمونه ، ما استطاعوا ، إذا أشارت إليه أصابع الاتهام . ومن هنا ، كان إيقاف بعض المسئولين عن الإسكان بمدينة (...) ، وتحويلهم للتحقيق ، على نحو ما أشارت إليه الصحف ، من قبيل مانشرته جريدة الأهرام ، فى صدر صفحتها الأولى ، يوم ١٩٩٤/١/٣٠؛ حيث قالت : " القبض على رئيس حى مدينة (...) السابق : ألقت الرقابة الادارية ، فى ساعة متأخرة من مساء أمس ، القبض على ... رئيس حى مدينة (...) السابق ، بعد أن تبين أنه كان يحصل على مبالغ كبيرة ، على سبيل الرشوة . وكان المستشار مرزوق مراد ، المحامى العام لنيابة الأموال العامة العليا ، قد أمر بالقبض على المتهم بعد تحقيقات النيابة ، وتحريات هيئة الرقابة الإدارية ... " . وهذا ماجعل الأستاذ عزت التمحارى يعلق فى مقاله ، بجريدة أخبار الأدب ، فى عدد ١٩٩٤/١/١٦ ، فى بابها ، قائلا : " وقد حيرنى ، ولابد أنه حير العضو الموقر وغيره من الأعضاء الموقرين ، لماذا سقط هذا الملياردير اليوم وليس أمس . وأعتقد أنه من مسئولية العضو الموقر ، وغيره من الأعضاء الموقرين ، البحث عن الأسباب التى انتهت بالقانون لأن يتحول من سيف المجتمع إلى شئ يشبه أبو رجل مسلوخة الذى يخيف الصغار عندما يضيق بلبعهم الكبار " .

على اعتبارها من أبرز ما طرأ على الشخصية المصرية - فى وقتنا الحالى - من سلبيات ، نرجو أن تكون على السطح ، لم تصل بعد إلى عمق الشخصية ، حتى يكون تغييرها إلى الأفضل أسهل وأيسر ، عند بدء المحاولات الجادة لذلك .

ولنا - عند هذا الحد - أن نتساءل عن العوامل المختلفة والمتجاذلة ، المتشابكة والمتفاعلة ، سواء أكانت اجتماعية أم تربوية أم تاريخية أم اقتصادية أم سياسية أم نفسية ... وأدت إلى ابتلاء الشخصية المصرية - فى وقتنا الحالى - بالسمات السلبية ، التى سبق أن ناقشناها فى هذا المقال، وبغيرها ، مما يضيق المقام هنا عن ذكره (مثل ضعف الولاء الوطنى ، ومراعاة الخواطر والمصالح الذاتية ، والأناية الضيقة ، والاهتمام بالمظاهر دون مراعاة الجوهر ، وضعف الإنتاجية وتعجلها دون بذل جهد حقيقى وجاد فيها ، والذى تطلق العامة عليه لفظى " الكرونة " أو " الكلفتة ") .

ولاشك أن الإجابة الدقيقة عن هذا التساؤل تحتاج إلى تعاون باحثين من تخصصات علمية مختلفة من المهمومين - حقيقة - بمشكلات البلد وأزماته ، ومن البعيدين عن التعصب لزاوية معينة من الرؤى ، أو توجه أيديولوجى منفلق ، يحيل الأسود إلى أبيض ، كما يحيل الأبيض إلى أسود وفق مايقوله الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليله
ولكن عين السخط تبدى المساويا

وتلخصه الحكمة الشعبية القائلة " بصلة المحب خروف " . مما يؤدى بنا إلى أن نفقد طريقنا ونحن نبحث عن الحقيقة وراء الظواهر التى نقوم بدراستها ، ويبعدنا عن السبيل العلمى السليم الذى ينبغى علينا اتباعه للوصول إلى المعرفة الحقة ، ثم العلاج الناجع.

اعتذار فى خاتمة

لاشك أنى سوف أتعرض إلى استنكار كثير من المفكرين ، والناقدين ، والزملاء ، الذين يرون فى كتابتى هذا المقال نوعا من التشاؤم ، ويعتقدون أن الحصافة إنما تكون فى إبراز الإيجابيات ، وإخفاء السلبيات ، والعمل على رفع الروح المعنوية ، حتى لو اضطررنا إلى تزييف الواقع ، وتغيبب وعى الناس . وقناعتى كانت - ولا زالت - أن كشف الحقيقة - حتى ولو كانت مرّة - ، والمصارحة بالعيوب - حتى ولو كانت قاسية - أفضل كثيرا للمجتمع ، كى نستحثه على البحث عن دواء لعلاج الداء الذى نتصارع حوله . هذا علاوة على رفع وعى الناس بحقيقة الواقع مما يجعلهم يشاركون بفاعلية فى تغيير السلبيات وتدعيم الإيجابيات . والله الموفق .

المراجع

- ١ - مؤنس ، حسين . إدارة عموم الزير ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٢ - الشعراوى ، عبد المعطى . نموذج للبيروقراطية من مرفق المياه ، جريدة الأهرام فى ١٩٩٣/٣/٢ .
- ٣ - القمحوى ، عزت . بكل أدب ، جريدة أخبار الأدب فى ١٩٩٤/١/١٦ .
- ٤ - طه ، فرج عبد القادر . موسوعة علم النفس والتحليل النفسى ، دار سعاد الصباح : القاهرة - الكويت ، ١٩٩٣ .
- ٥ - طه ، فرج عبد القادر . أصول علم النفس الحديث ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٨٩ .
- ٦ - فرويد ، سيجموند .: محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى ، ترجمة أحمد عزت راجح ، مكتبة مصر : القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٧ - فهمى ، مصطفى . الهندسة الوراثية عندهم وعندنا ، جريدة الأهرام فى ١٩٩٣/١١/١٩ .
- 8 - Freud, S.: The Ego and the Id, London, Hogarth Press, 1962.

7 - Lack of Good Examples:

Much good examples are of great importance for any society. Socializing and educating of the child to be a good citizen need good examples to be imitated and identified by the child. In Egypt, nowadays these good examples are very rare and badly combatted everywhere. Bad examples have so many means and ways to achieve better positions, to make more money, to have good status, and to live a better life. In such a case, youth prefers imitating or identifying with these bad examples to imitating or identifying with good examples.

8 - Conscience Cirrhosis:

Conscience is a part of personality which is formed by introjection of moral values and principles of conduct. It provides evaluations of right and wrong with regard to acts or behavior. The tension between the demands of the conscience and actual behavior of the ego is experienced as a sense of guilt.

Recently, we hear and read about so many incidents committed by Egyptians regarding illegal earnings, plunders, swindlers, bribes, malversations of public fund, smugglers, drug traders, escaping from taxes and many other anti-social crimes or acts. Many of those who are accused in such offences are high-placed people; some of them are ex-ministers.

Referring to this case, I think it is reasonable to coin a new term to describe such a case. This new term is conscience cirrhosis which nowadays characterizes the Egyptian personality, to some extent.

Nevertheless, we are full of hope and optimism that the Egyptian personality will quickly cure from such distortions, by scientific dealing with them and sincere efforts devoted for therapy; on the national level using the interdisciplinary approach.

3 - Bureaucracy:

Bureaucracy, especially in Egypt, has a very bad meaning. It refers to the very block-mined official who puts many obstacles in the way of others who need any service from governmental departments. In such a case, we loose much time and great efforts in vain, and citizens become so nervous and discontented. Moreover, bureaucracy in that sense, greatly corrupts national development in the society.

4 - Opportunism:

This trait refers to seizing any opportunity to gain personal profits so much as one can, even these profits are illegal. This trait nowadays characterizes so many Egyptians, especially in civil services. This case also has a very bad effect on general development.

5 - Irresponsibility:

Irresponsibility is a destructive trait. It is a case in which the citizen lacks the sense of responsibility of duties or commitments. Then, he becomes indifferent and apathetic in carrying on his responsibilities or performing his duties. This destructive trait prevails in so many Egyptians. It is more obvious if we compare teachers, lecturers, engineers, craftsmen, employees, nowadays to those of the recent past.

6 - Familial Apathy:

Severe aggression, bad feelings and indifference are more and more observed in the interrelations between members of the Egyptian family. This is also true between Egyptian Citizens in general; as the whole society is a big family. It is common to hear or read about so many patricides, matericides, fratricides, uxoricides, infanticides, along with other murderers. Terroristic incidents have been increased so much since 1980 until now; proving our notice in the modern Egyptian personality.

***Distortions Suddenly Increased in the Egyptian Personality
(A Psycho-Social View)***

Summary

The writer here tries to review some main distortions witch recently increased in the Egyptian Personality, from his own point of view, refering sometimes to some articles, events, incidents, happenings, trials, and many law-breaks, published or mentioned in magazines and newspapers ... etc.

He mentioned, in this paper, with some psychological discussions, these characterstcs in the modern Egyptian Personality:

1 - Lack of Scientific Attitude:

The writer observes that a major portion of Egyptians became more far from scientific attitudes in their everyday activities, behaviors, understandings and interpretations, manipulating and solving their problems, facing their responsibilities, education and advising their children, and carrying out their duties. We can see the same distortion in the governmental departments and institutes. This case is obvious if we compare what happened nowadays to what happened in recent past.

2 - External Locus of Control:

External locus of control means a tendency in the person (or in the national personality) to rationalize or attribute causes of events, or behaviors to external circumstances and factors. In such a case, the individual becomes far from personal responsibility about any fault or unaccepted behavior he does. This negative trait - which characterizes the Egyptian Personality nowadays - has a very bad effect on achieving the required goals; since it makes it very easy to rationalize all kinds of failure.